المحاضرة الثالثة : سوء المعاملة الوالدية

إن ظاهرة سوء معاملة الأبناء وإهمالهم شائعة في كل المجتمعات ، وفي مختلف الطبقات الاجتماعية والاقتصادية بغض النظر عن الدين والثقافة والعرق . وتقدر الاحصاءات السنوية لمنظمة الصحة العالمية أن حوالي 40 مليون طفل في العالم أعمارهم أقل من 15سنة يعانون سوء المعاملة والإهمال، ويحتاجون إلى رعاية صحية واجتماعية ، كما تربط الكثير من النظريات والدراسات النفسية بين المعاملة الوالدية للأبناء وخاصة المراهقين وتوازن الصحة النفسية لديهم ولكن بعض الدراسات الميدانية الأخيرة تشير إلى أن تأثير أنماط المعاملة الوالدية في الصحة النفسية للأبناء قد يختلف باختلاف الثقافات كما يختلف عبر المجموعات العرقية في البلد الواحد.

1- تعريف أساليب المعاملة الوالدية:

تعددت التعريفات التي تناولت أساليب المعاملة الوالدية بمسميات مختلفة، ومن بين التعريفات نذكر :

تعرفها هدى قناوي (1996: 83) بأنها الإجراءات التي يتبعها الوالدان في تنشئة أبنائهم اجتماعياً، أي تحويلهم من مجرد كائنات بيولوجية إلى كائنات اجتماعية"

ويعرفها يوسف عبد الفتاح (1990: 194)بأنها وسيلة يتبعها الآباء لكي يلقنوا أبناءهم القيم والمثل وصيغ السلوك المتنوعة، التي تجعلهم ينجحون في حياتهم وأعمالهم، ويسعدون في علاقاتهم الاجتماعية مع الآخرين.

كما عرفت سهير كامل (2001 : 12) أساليب المعاملة الوالدية بأنها التي يقصد بها استمرارية أسلوب معين أو مجموعة من الأساليب المتبعة في تنشئة الطفل وتربيته، ويكون لها الأثر في تشكيل شخصيته، وتنقسم إلى نوعين: أساليب تربوية: وتشمل الديمقراطية وتحقيق الأمن النفسي للتلميذ، وأساليب غير سوية: وتشمل الحماية الزائدة والتسلط والإهمال.

2- أبعاد أساليب المعاملة الوالدية:

تعددت الدراسات حول تحديد أهم أنماط أساليب المعاملة الوالدية التي تصف سلوك الوالدين للأبناء، وهي أساليب قابلة للتغيير والتعديل لتأثرها بعوامل ثقافية واجتماعية . ولعل أول هذه التصنيفات نموذج سيموندز(1939) **Symonds** الذي يقسم سلوك الوالدين مع الأبناء على أساس بعدين أساسيين : التقبل مقابل الرفض والسيطرة مقابل الخضوع . من جهته قام تشانس (1954) **Chance** بتعديل البعدين السابقين إلى بعدين آخرين هما (إيجابي، سلبي) و(نشط، خامل) وفي عام 1959 ظهر نموذج شيفر وبيكر Becker & Scheafer لسلوك الوالدين في معاملة الأبناء والذي طرح بعدين هما (التسامح، التقييد) و(القبول، الرفض) كما هما مبينان في الشكل التالي:

الشكل (1) مسميات أساليب المعاملة الوالدية ذات الاتجاهين أو القطبين

(زكريا الشربيني ، 1996 : 218)

من خلال ما سبق يتضح أن هناك تبايناً واختلافاً في تحديد أبعاد أساليب المعاملة الوالدية باتجاهاتها الأحادية القطب (ايجابية مقابل سلبية) أو ثنائية القطب (التقبل مقابل الرفض والسيطرة مقابل الخضوع) ، وقد لخصتها **قناوي (1992)** في تسعة أساليب هي : الحماية الزائدة ،الإهمال ، التفرقة ، التذبذب ، التسلط، القسوة ، التدليل ، السواء ، إثارة الألم النفسي . و سنستعرض فيما يأتي بعض الأساليب السلبية وآثارها على سلوك وشخصية الطفل:

2-1- الحماية الزائدة :

تتمثل في قيام أحد الوالدين أو كلاهما نيابة عن الطفل بالواجبات التي يمكنه القيام بها والمبالغة في الاهتمام والرعاية فلا تتاح له فرصة اتخاذ قراره بنفسه أو اختيار نشاطاته المختلفة. وقد تعكس تلك الحماية الشديدة مشاعر الآباء اللاشعورية لرفض الطفل ونبذه ، لذا تبدو اتجاهاتهم التربوية متقلبة ما بين التساهل والقسوة لتعكس قلقهم ومعاناتهم فقد يؤكد الآباء حبهم للطفل لكن تصرفاتهم المبالغ فيها لحمايته والمرتبطة بالقلق لا تعكس ذلك، فتؤدي الحماية الزائدة إلى الشعور بالهشاشة والضعف عند مواجهة أي موقف (الكتاني، 2000: 80) إذ تؤثر سلبا في تحرر الطفل واستقلاليته ومن ثم لا يتاح له فرصة لتحمل المسؤولية . كما قد تعبر تلك الحماية الزائدة عن حالة تعويض من قبل الوالدين للحب الذي لم يجداه في طفولتها أو فقدانهما لأحد الأبناء أو المعاناة بعد فترة من عدم الانجاب أو العلاقة الزوجية غير المستقرة.

2-2- الإهمال :

يتميز هذا الأسلوب بعدم الاهتمام بتشجيع الطفل على السلوك المرغوب ورفض الإجابة على أسئلته وإشباع فضوله المعرفي بالإضافة إلى عدم الاهتمام بعقابه إذا ارتكب خطأ فيحرم الطفل من الخبرات اللازمة كالتميز بين الصحيح والخطأ ومن آثار هذا الأسلوب أن يشعر الطفل بأنه غير محبوب أو عديم القيمة، مما يهدد أمنه ويجعله فريسته للشك والوحدة وقد يؤدي ذلك إلى الاضطرابات السلوكية المتنوعة من الغضب إلى السلوك المنحرف المتمثل في السرقة والعدوان.

2-3- التفرقة:

يتمثل في تعمد عدم المساواة بين الأبناء والتمييز بينهم بسبب الجنس أو رتبة الميلاد أو السن كتفضيل الذكر على الأنثى أو الأكبر عن إخوته في المأكل والملبس وغيرها ، فينصب الاهتمام والحماية والرعاية على هذا الطفل أكثر من بقية الإخوة وغالبا ما يترتب عن هذا الاتجاه تطور شخصيته أنانية تميل إلى تأخذ دون أن تعطي، وتحب أن تستحوذ كل شيء لنفسها حتى لو كان على حساب الآخرين فلا يكترث لهم أو يراعي شعورهم، وهو ما قد يولد لدى الأخوة غيرة شديدة وحقدا مبطنا تجاه الأخت أو الأخ المميز، وكذا زيادة العدوانية نحوه(الهمشري، 2003: 333) ويرى أبو جادو(2007) أن هذا الأسلوب أكثر الأساليب غير السوية وأخطرها فهو يحدد عدد الجانحين والمرضى الفعليين في مجتمع من المجتمعات .

2-4- التذبذب :

يعتبر من أخطر الأنماط على صحة الطفل النفسية، ويعبر عن حالة التقلب في معاملة الطفل بين اللين والشدة ويعرف باللا توازن في السلطة بين الأبوين، فالسلوك الذي يثاب عليه من أحدهما قد يرفض من الآخر أو قيام الطفل بسلوك ما يثاب عليه مرة ويعاقب عليه مرة أخرى، ويرجع ذلك إلى التباعد في اتجاه كل من الأب والأم في عمليات التنشئة وهذا ما يجعل الطفل في حيرة من أمره ودائم القلق ، وتكون لديه شخصية متقلبة كما يؤثر على توافقه الاجتماعي (العواملة، 2003 : 36).

2-5- التسلط :

يقصد به المبالغة في الشدة دون الاهتمام بحاجات ورغبات الطفل وفرض الطاعة المعتمدة على أساليب قسرية كالتهديد والعقاب الجسمي أكثر من أساليب الحوار والتفسير لضبط سلوك الطفل وفرض قيود عليه والتحكم الزائد وفق معايير قد لا تتناسب مع عمره وخصائصه النمائية ، وهو الأمر الذي يسلبه شخصيته ويحرمه من ممارسة حقوقه مما يجعله مترددا غير واثق من نفسه لعدم شعوره بالكفاءة ، فيكون مذعنا بشدة للسلطة أو يميل إلى التعدي عليها وارتكاب الأخطاء في غيابها وتدمير ما يرمز لها، كما قد يؤدي ذلك إلى نمو ضمير تعسفي يجعل الطفل يشعر بالذنب بسبب أفكار وتصرفات قد لا تكون خاطئة بالضرورة (الكتاني، 2000 :77). ويتضمن الأسلوب العقابي شكلين أساسيين هما العقاب النفسي والعقاب البدني ونلخصهما كالتالي :

أ- العقاب النفسي: ويتمثل في إشعار الطفل بالنبذ كلما قام بسلوك غير مرغوب فيه، أو تحقيره والتقليل من شأنه مهما كان سلوكه أو أداؤه، أو البحث في أخطائه وإبداء ملاحظات نقدية جارحة له، مما يفقد الطفل ثقته بذاته، ويجعله مترددا في أي عمل يقوم به خوفا من حرمانه من رضا الكبار وحبهم ، وغالبا ما يترتب على هذا الاتجاه شخصية انسحابية منطوية غير واثقة من نفسها ومرتبكة توجه العدوانية نحو ذاتها (الكتاني، 2000 : 82) .

ب- العقاب البدني: يعتمد هذا الأسلوب على الإيذاء الجسدي للطفل باستخدام أنواع الضرب المختلفة وقد يكون الهدف من ورائه نبيلا كإجبار الطفل على الالتزام بالقيم والمعايير أو منعه من ارتكاب السلوك المرفوض كالاعتداء على أخيه مثلا.

2-6- التدليل :

لا يقل هذا الأسلوب في التعامل خطورة عن القسوة والصرامة ، فالمغالاة في الرعاية والدلال سيجعل الطفل غير قادر على تكوين علاقات اجتماعية ناجحة مع الآخرين أو تحمل المسؤولية في الحياة كونه لم يمر بتجارب كافية ليتعلم منها كيف يواجه المواقف التي يتعرض لها ، فتعامل الوالدان مع الطفل بدلال زائد وتساهل بحجة رقة قلبيهما وحبهما لطفلهما يجعل الطفل يعتقد أن كل شيء مسموح ولا يوجد شيء ممنوع لأن هذا ما يجده في بيئته الصغيرة ولكن عند خروجه إلى البيئة الاجتماعية الكبرى سيواجه قوانين وأنظمة تمنعه من ارتكاب بعض التصرفات والحصول على بعض المنافع مما قد يدفعه إلى أن يثور في وجهها ويخالفها دون مبالاة.

أما عن الأساليب الايجابية فتعرف بأنها تلك الأساليب السوية والبناءة التي يتبعها الوالدان في التعامل مع أبنائهما وتهدف إلى تنشئة أطفال يتمتعون بالصحة النفسية (النيال، 2002 :113) ، ومن أهم هذه الأساليب : الأسلوب الديمقراطي أسلوب التقبل ، أسلوب الحزم ، أسلوب الاستقلال ، أسلوب الثواب والعقاب.

3 - محددات المعاملة الوالدية:

تتعدد العوامل التي تواجه الوالدين أثناء تنشئتهم للطفل وتحدد طريقة تعاملهما معه يرتبط بعضها بخصوصياتهما فيما يرتبط بعضها الآخر بالطفل والقسم الثالث يأتي من البيئة الخارجية بمكوناتها الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية و من بين أهم العوامل نذكر :

3-1- العلاقة بين الزوجين : كثيرا ما تكون العلاقة بين الزوجين خالية من العطف والتقدير ونتيجة لذلك يميل الوالدان خاصة الأم إلى المبالغة في العطف على أطفالها كتعويض لحرمانها من الحب ، وقد يؤدي الطلاق إلى سعي أحد الوالدين لكسب الطفل إلى جانبه فيعتمد أسلوب التساهل والتسامح ، وبالمقابل أيضا فإن بعض الآباء والأمهات الذين لا يشعرون بدفء العلاقة الزوجية ويعانون من انسحاب الشريك قد يميلون إلى توبيخ أطفالهم ورفضهم كتعبير عن رفض العلاقة .

3-2- شبكة العلاقات الاجتماعية : إن المساندة والمشاركة التي يتلقاها الوالدان من الأقارب والأصدقاء والجيران هي علاقات تشعرهما بالكفاية عند رعاية أطفالهما وتجنبها عقابهم وتقييد حريتهم، فالعزلة الاجتماعية وضيق شبكة العلاقات الاجتماعية يرتبط في كثير من الأحيان بالاختلال الوظيفي لاساليب المعاملة الوالدية.

3-3- رتبة الميلاد: فالطفل الأكبر ينشأ عادة ووالداه لم يكتسبا بعد الخبرة اللازمة لتربية الأطفال ولم يتم التوافق بينهما على تربية طفلهم، أما الطفل الأخير فقد يتعرض للتدليل الزائد والتراخي أو الإهمال ، كما أن الطفل الوحيد غالبا ما يحاط بالدلال وتتأثر شخصيته بالظروف التي منعت والديه من الانجاب ....

3-4- جنس الطفل : جنس الطفل هو أحد العوامل البيولوجية والاجتماعية المؤثرة في نمط التعامل بين الوالدين والأبناء وقد أكدت العديد من الدراسات (سلامة ، 1994 ، الشربيني ، 2006) أن جنس الطفل له تأثير كبير على السلوك الوالدي.

3-5- حجم الأسرة وتركيبها: تعد الأسرة التي يسود فيها جو من التفاهم والحب والاتفاق على أسلوب واحد في تربية الأبناء أقدر على تكوين أبناء متوافقين نفسيا واجتماعيا بينما الأسر المتصدعة بسب الطلاق أو فقدان أو غياب أحد الوالدين أو كلاهما فتعاني العديد من المشاكل النفسية والاجتماعية ، كما يؤثر ايضا حجم الأسرة في التقارب بين الآباء والأبناء فكبر عدد الأفراد داخل الأسرة يؤدي إلى تقلص التفاعل اللفظي مع الأبناء والتسلط معهم وعدم إشباع حاجاتهم.

3-6- المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة : يعد متغيرا بالغا الأهمية نظرا لما يترتب عليه من أنماط سلوكية عند الفرد كونه يرتبط بدرجة الإحباط التي يعايشها الفرد أثناء التنشئة، والذي يؤثر بدوره في درجة الكبت والتسلط والقسوة وتفاعل الوالدين مع الأبناء ، فالأطفال الذين ينشؤون في أسر ذات مستوى اقتصادي واجتماعي عال تهيؤ لهم إمكانيات من الرعاية الجسمية والعقلية والانفعالية قد لا تتاح للذين ينتمون إلى أسر أقل في المستوى الاقتصادي والاجتماعي .

3-7- عمل الأم: يعتقد الكثيرون أن خروج الأم للعمل غالبا ما يؤثر على مستويات العناية بالأطفال وإن كانت الدراسات قد اختلفت في تأثير عمل الأم على الطفل ، فمشكلات الأطفال لا ترتبط إلى حد بعيد بعمل الأم أو وجودها المستمر بالمنزل بل في الاستقرار الأسري والتوافق بين الوالدين ودعم الزوج الذي يقلل من صراع الأدوار التي تواجهها الأم العاملة.

3-8- شخصية الوالدين : شخصية الوالدين تلعب دورا كبيرا وأساسيا في التأثير على نوع المعاملة التي يتلقاها الطفل فكثيرا ما تتأثر هذه المعاملة بما مر به الولدان من تجارب سابقة وخاصة في طفولتهما .

3-9- شخصية الطفل : إن خصائص الطفل وحالته المزاجية تؤثر على استجابات الوالدين وتجعله أكثر أو أقل شدة كما أن تكوين الطفل الجسدي وصحته الجسمية ومدى إعاقته تجعل الوالدين يتخذون توجهات معينة نحو معاملته فقد تدفعهم إعاقة الطفل مثلا إلى المبالغة في حماية أو التخلي عنه وإهماله ، ويضاف لما سبق عدد من العوامل الأخرى كوسامة الطفل وذكاءه وقدراته والتي يمكن أن تجعل الوالدين أكثر حماية واهتماما بطفلهما .

4 – آثار المعاملة الوالدية على الطفل والأسرة:

تشير العديد من الدراسات إلى الدور الذي تمثله المعاملة والممارسات الوالدية في التنبؤ بأعراض الاضطرابات النفسية كالقلق عند الأطفال ، وبشكل خاص أجمعت الدراسات أن بعدين من الوالدية وهما المستويات العالية من الممارسات الوالدية السلبية العدائية/ القسرية ، والمستويات المنخفضة من الممارسات الوالدية الإيجابية المشاركة/المساندة يرتبطان بالقلق عند الأطفال. وتَتضمن الممارسات الوالدية القسرية السلوك الذي يظهر المشاعر السلبية نحو الطفل وقد تتضمن أساليب التهديد أو العقاب النفسي والجسمي للتأثير على سلوك الطفل ولممارسة السيطرة والضبط الوالدي وبالمقابل تضمنت الممارسات الوالدية المشاركة والمساندة توفير الدفء والتواصل الإيجابي من خلال النشاطات المشتركة والدعم العاطفي. ويلاحظ هنا سعي بعض الآباء لتحقيق طموحاتهم وأحلامهم التي حرموا من تحقيقها من خلال أبنائهم وهو ما يعد من أساليب التربية الخاطئة التي لها آثار سيئة في التكوين النفسي والاجتماعي السوي للطفل، خاصة إذا كان هذا الطموح لا يتفق مع إمكانيات الطفل وقدراته أو قد لا يتماشى مع ميولاته ورغباته.

و لقد فسرت العديد من النظريات النفسية والاجتماعية مثل التعلق والتعلم الاجتماعي تفاعلات الوالدين والطفل كمساهم هام في تنشئة الطفل وتطور كفاءته الاجتماعية ، ويمكن تصنيف نظريات تنشئة الطفل والمراهق بشكل واسع إلى مجموعتين: تلك التي ترى أن الممارسات الوالدية تحدد مستوى تطور الطفل وأخرى ترى أن التربية تمثل عملية متبادلة تؤثر المعاملة الوالدية فيها على تطور الطفل ويؤثر سلوك الطفل أيضاً على الممارسات الوالدية ، وقد استندت معظم دراسات مشكلات التوافق النفسي والاجتماعي لدى الطفل إلى نموذج القالب الاجتماعي الذي يمثل المجموعة الأولى من نظريات تنشئة الطفل والمراهق والتي تفترض أن ندرة الدعم والسيطرة الوالدية تنتجان سلوك المشكلة لدى الطفل وطبقا لهذا المنظور فإن التأديب والضبط الوالدي المتناقض أو المتساهل والنقائص الوالدية في توفير الدعم العاطفي تؤدي إلى عرقلة عملية تقمص الأطفال للقيم ولمعايير آبائهم ،كما قد يروج الآباء لسلوك الأطفال اللا إجتماعي بغير قصد خلال تفاعلاتهم مع أطفالهم عن طريق الممارسات التأديبية القاسية . من جهة أخرى تقترح نظرية التعلم الاجتماعي (Bandura ,1977) أن الأطفال يتعلمون ويقلدون السلوك بسهولة، فقد يلاحظ الأطفال سلوك القلق والانسحاب لدى الوالدين ويتعلمون أن الانسحاب هو وسيلة للتعامل مع المواقف الاجتماعية الصعبة.

ويمثل نموذج التأثيرات المتبادلة المجموعة الثانية من نظريات تنشئة الطفل والمراهق. وتتبنى هذه النظرية البديلة لتأثيرات التربية الوالدية فكرة أن الممارسات الوالدية تؤثر فعلاً على سلوك الطفل ، لكن سلوك الطفل بدوره يؤثر أيضاً على الممارسات الوالدية ويؤدي لانتزاع ردود ، حيث ينتزع سلوك الأطفال اللاإجتماعي ردود أفعال قاسية من الوالدين والتي تصعد بدورها سلوك الطفل العدواني. كما قد يزيد الافتقار إلى الرابطة العاطفية القوية بين الطفل والوالدين من إمكانية انضمام المراهقين إلى مجموعات الأقران المنحرفة التي بدورها قد تدفع الآباء لرفض أبنائهم المراهقين عاطفياً بسبب هويتهم اللاإجتماعية ، وقد يستجيب الآباء برفع مستوى تحملهم للسلوك المضطرب للإبن مما قد يؤدي إلى تناقص محاولات السيطرة والضبط السلوكي الوالدي، ليصبح الآباء أقل تحكما عندما يكون سلوك ابنهم أكثر خطورة وتهديداً.

ونظرا لأهمية والدور الذي تلعبه نتائج الدراسات حول تأدية الأسرة لوظائفها وتأثيراتها على المسار التطوري للأبناء وما تقدمه من معلومات ينبغي أن تستند لها برامج التدخلات الإرشادية التي يقوم بها المرشدون المدرسيون